أوبـــامـــا .. جـــرأة الأمل

لـــم انـــشـــأ في بـيـئـــة ديـنـيـــة

(٥)

ترجمة : ابتسام عبد الله

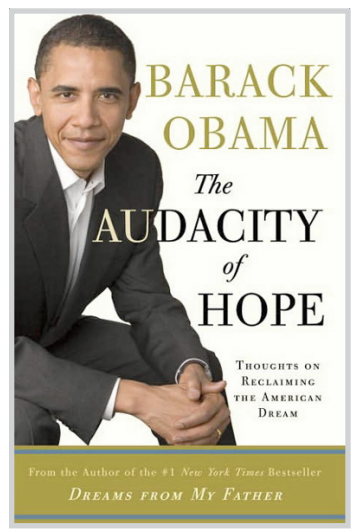

الايمان

بعد يومين من الفوز بالترشيح لانتخابات الكونغرس لعموم الولايات المتحدة، تسلمت رسالة عبر الانترنت من طبيب في جامعة شيكاغو- الكلية الطبية يقول فيها: أهنئك لفوزك الباهر. كنت سعيداً في التصويت لك واود ان اخبرك بأني سأصوت لك في الانتخابات العامة اني اكتب للتعبير عما يهمني والذي قد يمنعني في النهاية من تأييدك.

وقد وصف الطبيب نفسه بالمسيحي الذي ادرك ان تعهده لابد من ان يكون كلياً. ان ايمانه قاده بقوة الى معارضة الاجهاض وزواج المثليين وان ذلك الايمان ايضاً قاده الى الاستفهام عن السوق الحرة واللجوء السريع الى الجيش والعمل العسكري وهي من الصفات المميزة للسياسة الخارجية للرئيس بوش.

كان السبب الذي يدعو الطبيب للتفكير بشأن التصويت لمنافسي لم يكن موقفي من الاجهاض تماماً، فقد قرأ ان حملتي حسب موقعي في الانترنيت يقول بأنني سأحارب.

"مفكري الجناح اليميني الذي يريدون ان ياخذوا حق المرأة في الاختيار انا لا اطلب منك معارضة الاجهاض، بل التحدث فقط بشكل عادل حول الموضوع.

عدت الى موقعي في الانترنيت ووجدت تلك الكلمات المؤذية انها لم تكن كلماتي بل ان المساعدين لي قد اختاروها بشرح موقفي ضمن الانتخابات الاولية للحزب الديمقراطي في وقت كان فيه بعض المعارضين يبحثون عن أي شيء ضدي.

بعد قراءتي رسالة الطبيب احسست بالخجل. وفكرت في ان هناك حركات ضد الاجهاض لم اشعر بشيء تجاهها، اولئك الذين كانوا يمنعون دخول النسوة اللواتي يدخلن عيادات الاطباء. وفي اليوم التالي كتبت للطبيب ان "الاسرة" تقع ضمن اهتماماتي، ووزعت تلك الرسالة على المساعدين لي لتغيير الكلمات السابقة.

❖❖❖

تقول الحقيقة ان الامريكيين اناس متدينون.

وحسب آخر احصائية تدل الارقام ان ٩٥٪ من الامريكيين يؤمنون بالله، اكثر من الثلثين ينتمون الى الكنائس واكثرية الناس يعتقدون بوجود الملائكة اكثر مما يعتقدون بنظرية التطور والنشوء، والكتب الصادرة التي تتحدث عن يوم القيامة تباع بالملايين، ورئيس الجمهورية يتحدث باستمرار كيف ان المسيح قد غير قلبه.

ومع ذلك، فلو سأل واحد قبل خمسين عاماً عن مستقبل الدين في اميركا فإن الجواب كان بالتأكيد انه الى الانحدار.

ولكن التأثير السياسي المتعاظم لليمين المسيحي يقول فقط جزءاً من الموضوع، اذ ان تأثير الكنيسة الانجيليكية كان كبيراً ايضاً ليس في الحفاظ على الدين فقط بل ازدهاره حديثاً بين التقنيين.

وهناك اسباب مختلفة لهذا النجاح، من براعة الايفانجليكيين الى الترويج للدين حسب شعبية قادتهم. ولكن نجاحهم يعود ايضاً الى الحاجة لما يروجون له ففي كل يوم كما يبدو يذهب عدة ألوف من الامريكيين يومياً لتمضية اعمالهم- توصيل الصغار الى المدرسة، قيادة السيارة الى العمل او الذهاب الى الاجتماعات، او مراكز التسويق محاولين الحفاظ على النظام الخاص للغذاء حسب وصفات النحافة- وهم يدركون في النهاية ان هناك امراً مفقوداً وان عملهم وممتلكاتهم ليس امراً كافياً فهم يريدون شيئاً ينتشلهم من الوحدة ومن مجريات الحياة الروتينية يريدون تأكيداً بان هناك من يهتم بهم، يستمع اليهم وانه لم يكتب لهم ان يسافروا في الحياة طريقاً طويلاً نحو اللاشيء.

ان كان لدي اليوم شيء من نفاد البصيرة تجاه الحركة نحو التزام ديني عميق فقد يعود ذلك الى كونه طريقاً قد سافرت فيه.

وانا لم اكبر في بيئة دينية كان جدي لأمي من كانساس، انغمس بالدين في طفولته، وانتحرت والدته كان جداي لأمي، من المنهجيين، وربما كان ذلك السبب لتركهما كانساس والهجرة الى هاواي، دون ان تتأصل جذور الدين في قلبيهما.

وقد انتقل مزيج جدي وجدتي الى والدتي وتجربتها كطفلة حساسة ميالة الى القراءة، تعيش في مدن صغيرة مثل كانساس واوكلاهوما وتكساس قد اكدت تلك الصفات فيها. اما ذكرياتها عن المسيحيين الذين عرفتهم في شبابها فلم تكن جيدة ولا يعني ذلك انها ام تزودني بالتعاليم الدينية ففي منزل العائلة كان هناك، الانجيل والقرآن وكتاب بها جافادغيتا متجاورة على الرفوف جنباً الى جنب تلك الكتب عن الميثولوجيا الاغريقية والاسكندنافية والافريقية وفي عيد الميلاد او رأس السنة كانت والدتي تسحبني الى الكنيسة كما كانت تسحبني الى المعبد البوذي والى عيد رأس السنة الصيني والى المواقع القديمة للدفن في هاواي ومع ذلك كان يتم افهامي ان تلك الزيارات المختلفة لا تعني لي أي نوع من التعهد الديني. كانت تقول ان الدين هو تعبير عن ثقافة الانسان وليس ينبوعه الوحيد وليس من الضروري ان يكون الافضل.

والخلاصة ان والدتي رأت الدين من خلال اعين علماء الانسان (الانثروبولوجيين) الذين اصبحت منهم والاكثر من ذلك، لم التق الا نادراً بأولئك الذين يقدمون وجهة نظر اخرى عن الايمان.

كان والدي في الغالب غائباً عن طفولتي بعد الطلاق الذي حدث بينه وبين والدتي عندما كنت في الثانية من عمري وعلى أي حال على الرغم من انه نشأ مسلماً فانه عند التقائه بوالدتي كان مجلاً ملحداً معتقداً أن الدين نوع من الخرافات تلك التي شاهد مثلها في كينيا.

وقد تزوجت والدتي مجدداً من اندونيسي كان شكوكياً مثلها، رجل رأى الدين امراً غير عملي في الحياة العملية ونشأ في بلد من السهولة فيه مزج الايمان الاسلامي مع بقايا الهندوسية والبوذية والتقاليد القديمة، وفي خلال الاعوام الخمسة التي عشتها مع زوج والدتي في اندونيسيا أرسلت اولاً الى مدرسة كاثوليكية في الجوار وبعدئذ الى مدرسة غالبية طلابها من المسلمين، وفي الحالتين كانت والدتي غير مهمتة بتدريسي تعاليم الدين او معاني كلمات المؤذن الذي يدعو الى الصلاة بقدر اهتمامها بتعليمي جداول الضرب.

وعلى الرغم من الموقف الدنيوي لوالدتي فإنها كانت اكثر انسان عرفته يقظة روحية كانت لديها نزعة قوية للإحساس والتصدق والحب، وامضت معظم حياتها في ذلك مع ما سببه لها من ضرر احياناً. وبعيداً عن الاديان كانت تعلمني المبادئ التي يتعلمها الطلاب الامريكيون في مدارس الاحد: النزاهة، التعاطف، النظام، الامتنان والعمل الدؤوب. وكان الفقر والظلم يثيرانها وتحتقر كل من لا يأبه بهما.

كانت والدتي حساسة، تهتم بالطبيعة وفي خلال النهار قد ترى لوحة او تقرأ بيتاً من الشعر او تستمع الى قطعة موسيقية وارى عينيها تمتلئان بالدموع واحياناً في مراحل نموي كانت تستيقظ في منتصف الليل وقد توقظني لأرى مشهداً جميلاً للقمر او انها احياناً تغلق عيني ونحن نسير معاً في الغسق من اجل الاستماع الى حفيف الاوراق كانت ترى اسراراً في كل مكان وتبتهج لمحض غرابة الحياة.

اني في استعادة احداث الماضي، ادرك تماماً كم اثرت في بعمق نفسيتها وروحيتها تلك -كيف انها ساندتني على الرغم من غياب الوالد عن الدار، وكيف جعلتني اعوم في اجتياز مياه فترة المراهقة الضحلة، وكيف انها ارشدتني بشكل خفي عبر الطريق الذي سأتخذه، وقد تكون طموحاتي العنيفة اتقدت من قبل والدي لمعرفتي بإنجازاته وفشله، وبرغبتي غير المعلنة لكسب حبه بشكل ما، عبر استيائي وغضبي تجاهه، ولكن ايمان والدتي بطيبة الناس وفي القيمة النهائية لهذه الحياة القصيرة التي مُنحت لكل واحد منا- هي التي حددت تلك الطموحات.

لقد سجلت في كتاب سابق الوسائل التي ساعدتني في عملي الاول في شيكاغو للانتقال الى مرحلة الرجولة -كيف ان عملي مع رعاة الابريشية والناس العلمانيين قد عمقت قراري للعمل في الحياة العامة، كيف انهم حموا هويتي العرقية وعمقوا اعتقادي في مقدرة الناس العاديين على عمل امور غير اعتيادية، ولكن تجربتي في شيكاغو ارغمتني ايضاً لمواجهة صراع لم تحله مطلقاً والدتي في حياتها. وهو حقيقة كوني غير منتم الى مجموعة ما ولم اشاركهم تراثاً تستند اليه معتقداتي. فالمسيحيون الذين عملت معهم تعرفوا على انفسهم في، وقد رأوا انني اعرف كتابهم وشاركتهم قيمهم وأنشدت اغانيهم. ولكنهم شعروا ان جزءاً مني تحرك وانفصل مراقباً بينهم. لقد وصلت الى الادراك انه من دون وعاء لمعتقداتي بلا تعهد مطلق تجاه مجموعة او للايمان فإني سأبقى دائماً وعلى مستوى معين منفصلاً، حراً بالطريقة التي كانت عليها والدتي حرة، ولكني متوحد بالطريقة نفسها التي كانت عليها وحيدة. ان هناك اموراً اسوأ من مثل هذه الحرية. بإمكان امي ان تعيش سعيدة كمواطنة في هذا العالم توصل اجزاء مجموعة من الاصدقاء معاً أينما وجدت نفسها، تُرضي نفسها وحاجاتها بعملها واطفالها بمثل هذه الحياة كان بإمكاني انا ايضاً الاقتناع ذاتياً لو لم تكن هناك صفات مميزة للكنيسة السوداء التاريخية، صفات ساعدتني على التخلي عن بعض شكوكي لاحتضن القيم المسيحية.

ولسبب واحد انسحبت تجاه قوة التراث الديني الامريكي الافريقي من اجل احداث تغيير اجتماعي. فبسبب العوز لم تكن للكنيسة السوداء الا نادراً، رفاهية توزيع مكافآة الخلاص الفردية من المكافات الجماعية، وكان عليها ان تقدم الخدمات كمركز سياسي للمجتمع واقتصادي واجتماعي وروحي ايضاً. وعبر ذلك التاريخ من الكفاح، كان بامكاني رؤية القيم كشيء اكبر من مجرد راحة للمتعب وحاجز ضد الموت، بل عامل فعال في العالم وفي خلال العمل اليومي كان الرجال والنساء يلتقون لإيجاد طريق من اللاطريق والتمسك بالامل والكرامة.

وربما انني بمعرفتي بأسس الايمان المعتمدة على الكفاح بسبب الفقر فقد قدمت لي الكنيسة السوداء بصيرة ثانية: ذلك ان الايمان يعني عدم امتلاكك شكوكاً او انك تتخلى عن العالم.

وبسبب هذا الادراك الذي توصلت اليه اخيراً والذي لا يتطلب فيه التعهد الديني تعليق الشكوك والتفكير النقدي او التخلي عن الصراع من اجل العدالة الاجتماعية، وبمعنى آخر العودة من عالم عرفته وأحببته أي انني اصبحت قادراً على السير عبر ممشى الكنسية الموحدة لأعمد.

وعندما ركعت تحت الصليب في شيكاغو ساوث سايد، احسست ان الله معي سلمت نفسي لإرادته وكرستها لمعرفة الحقيقة.

باراك اوباما

❖❖❖

ان مناقشة المسائل الايمانية لا تدور في الكونغرس. ولا احد يسأل عن الانتماء الديني لعضو الكونغرس ونادراً ما اسمع كلمة "الله" تتردد في خلال المناقشات، وخارج حدود الكونغرس فإن أي نقاش حول الدين ودوره في السياسة قد يتحول الى امر غير متمدن فقد علمتنا الليبرالية ان نكون متسامحين مع معتقدات الديانات الاخرى، ما دامت تلك المعتقدات لا تسبب ضرراً او اذى بحق شخص آخر لاعتقاده بشيء مختلف وعندما تحاول المجموعات الدينية التحرك سياسياً من اجل تحقيق اهدافها فإن ذلك يثير الليبراليين.

واولئك الناس من امثالنا الذين يعملون في الاعمال العامة قد يحاولون التجنب التام للمناقشات الدينية وقيمها خوفاً من الاساءة الى احد ما.

وبعد ذلك كله فإن مشاكل الفقر والعنصرية وغير المؤمن على حياتهم والعاطلين، ليست ببساطة مشاكل تقنية فهي متجذرة في اللامبالاة والقسوة الفردية في المجتمع انها الرغبة الموجودة في اولئك الذين في قمة السلم الاجتماعي من اجل الحفاظ على ثرواتهم ومنزلتهم الرفيعة مهما كلف ذلك، وهناك على السواء، نجد اليأس وتحطيم الذات بين اولئك الذين في قاع السلم الاجتماعي.

ان حل هذه الامور بأكملها سيتطلب تغييرات في سياسة الحكومة ويتطلب ايضاً تغييرات في القلوب والعقول. فأنا اؤمن بقضية ابعاد الاسلحة عن مدننا الداخلية، وعلى قادتنا قول ذلك في وجه الجماعات المؤثرة من صنّاع السلاح.

وانا اؤمن ايضاً انه عندما يطلق احدهم النار بدون تمييز في حشد لانه يشعر بأن أحداً ما لم يحترمه فإننا عندئذ نعاني مشكلة اخلاقية اننا لن لنكون بحاجة لمعاقبة ذلك الرجل بل الاعتراف بأن هناك ثقباً في قلبه: شخص لا تستطيع برامج الحكومة وحدها قادرة على اصلاحه. وانا اعتقد ايضاً أن علينا اضافة المزيد من الدولارات لضريبة تعليم الفقراء من النساء والرجال. واعتقد انا ايضاً بإمكانية الايمان تحصين شعور المرأة بذاتها، واحساس الرجل بمسؤوليته لتجنب حالات الحمل غير المطلوبة ومن اجل تخفيض عدد حالات الاجهاض، كما اعتقد ايضاً بضرورة احساس جميع الاشخاص من الجنسين بالتبجيل تجاه أي علاقة حميمية جداً بينهما.

❖❖❖

لقد ذهبت قبل عامين الى مدينة برمنغهام في الاباما، لإلقاء كلمة في معهد الحقوق المدنية فيها، كان المعهد قريباً من كنيسة في الشارع السادس عشر، الموقع الذي لقيت فيه اربع بنات حتفهن بانفجار قنبلة من قبل المتعصبين البيض في خلال درس ديني، عام ١٩٦٣، تجولت في الكنيسة ورأيت الاثر القديم الذي احدثته القنبلة، وشاهدت صور الاطفال الاربعة عاد ذهني في الحال الى عام ١٩٦٤، عندما أقر الكونغرس اخيراً الحقوق المدنية جال في ذهني، ان آباء وامهات تلك الفتيات، قد عرفوا آنذاك، انهن لم يلقين حتفهن هباء، بل انهم ايقظوا ضمير أمة وساعدوا على تحرير الناس ذلك ان القنبلة قد فجرت سداً من اجل ان تنهمر العدالة مثل الماء والحق مثل جدول كبير.

لقد تجولت افكاري بعدئذ الى والدتي في ايامها الاخيرة، بعد انتشار السرطان في جسدها وبدا واضحاً أنه لم يتبق هناك امل ما. كانت في خلال مرضها اخبرتني عن استعدادها للموت، ولكن قدومه السريع قد فاجأها، كأنما الحياة التي تحب غدرت بها، رأيت آنذاك الخوف يبرق عبر عينيها، شيء اكبر من خوف الالم او الخوف من المجهول، بل كان مجرد وحدة الموت هو الذي فاجأها اعتقد ان الامر يعود الى الفكرة او الانطباع من انها في هذه الرحلة الاخيرة، في هذه المغامرة الاخيرة، لن تجد من تشاركه تجربتها هذه.

حملت مثل هذه الافكار معي وغادرت الكنيسة لألقي كلمتي وفي ساعة متأخرة من تلك الليلة، وبعد عودتي الى البيت في شيكاغو، جلست الى مائدة العشاء، ارقب ابنتيّ ماليا وساشا وهما تتضاحكان وتقاومان والدتهما قبل ان تطاردهما عبر السلم والى حمامهما. وانا في المطبخ وحيداً اغسل الاطباق، بدأت اتخيل البنتين وقد كبرتا، واحسست بذلك الالم الذي يحسه الوالدان بين حين وآخر تلك الرغبة في الاحتفاظ بكل دقيقة من حضور طفلك ولا تدعها تفلت- حفظ كل حركة وكل تجعيدة شعر او لمسة اصابع تذكرت ان ساشا سألتني يوماً، ما الذي يحدث عندما نموت، ثم اضافت: "انا لا اريد ان اموت دادي" عانقتها وقلت "امامك طريق طويل طويل قبل ان تقلقي بشأن ذلك" وقد ارضتها الاجابة سألت نفسي، ان كان عليّ اخبارها بالحقيقة، ذلك لانني لم اكن واثقاً بما سيحدث عندما نموت، ولا اعرف ان تستقر الروح او ما الذي يوجد قبل يوم الدينونة ومع ذلك وانا اصعد السلم ادركت ما الذي كنت آمله ذلك ان والدتي كانت بشكل ما مع الفتيات الاربع، قادرة على احتضانهن والعثور على البهجة مع ارواحهن.

وعلمت انني بتعلقي بابنتيّ في تلك الليلة، قد قبضت على مقدار قليل من السماء.

في كتاب مناهض للأفكار النازية:

الاخ جيريون بملابس الجيش النازي!

تأليف: ديدييه بينوا
ترجمة: عدوية الهلالي

في بدلة الجيش النازي، اصبح غيريون غولدمان كاهناً دون ان يكمل دراسة اللاهوت، وفي الكتاب الذي صدر مؤخراً عن دار باسكال الفرنسية للنشر تحت عنوان (وأنقذ الاولاد...)لديدييه بينوا،يفصل الكاتب سيرة طالب المدرسة الاكليريكية لدراسة الكهنوت الذي عبر عن ارادة وايمان عميقين وخارجين على المألوف.

تقترب سيرة غولدمان في غرابتها من سيناريوهات الأفلام الهوليوودية وتقول للقراء باختصار بأن الانظمة الدينية، وبعيداً عن كونها مأوى للمهزومين والحائرين من الجنود النازيين، فقد جرت باسم الايمان بها افعال استثنائية من الشجاعة والمقاومة خلال الحرب العالمية الثانية...وتروي لنا تلك القصة المدهشة للشاب الالماني كارل غولدمان الملتحق بالجيش النازي وبالمدرسة الاكليريكية في ذات الوقت لدراسة اللاهوت بهدف ان يصبح كاهناً..

ولد غولدمان في عام ١٩١٦ في مدينة صغيرة في هيس، وكان والده بيطرياً ومقاتلاً على الجبهة الغربية في الوقت نفسه، وعندما كبر الشاب، صادف حدثين مهمين غيرا وجهة حياته تماماً..

كان الحدث الاول هو لقاؤه وهو في سن الثامنة براهب فرنسيسكاني زرع فيه بذرة الايمان والنزعة الدينية التي عبر عنها في عام ١٩٤٥ بالسفر الى اليابان بصفة مبشر...وكان الحدث الثاني هو الوفاة المبكرة لوالدته التي تركته يتيماً مع ستة اشقاء آخرين فعمدت خادمة الكنيسة التي كانت تقدم القداس اليومي في الدير الى الحلول محل والدته، وكانت قد نذرت نفسها لهذه المهمة بهدف ان يتمكن كارل من الحصول على الكهنوت لدى الرهبان الفرنسيسكانيين...

بعد ان تزوج والد كارل بالشقيقة الصغرى لزوجته المتوفاة، استقرت عائلة غولدمان في كولون، وهناك صار الصبي مقاتلاً دون ان يتخلى عن تدينه وورعه والتحق باتحاد الشبيبة الكاثوليك ماعرضه لمواجهات عنيفة مع اعضاء الشبيبة الهتلرية...

في عام ١٩٣٦، دخل في الترهبن الفرنسيسكاني وحمل اللقب الديني (الاخ جيريون)...كان كارل قد اكمل دراسته للفلسفة عندما اشتعلت الحرب العالمية الثانية وهنا بلغه الامر بضرورة الالتحاق بالخدمة العسكرية فترك دروسه وذهب الى الجبهة الشرقية ليلتحق بالجيش النازي دون ان يؤدي اليمين.

كانت السنتان اللتان اعقبتا تجنيده، وحسب اعترافه الخاص، من بين اكثر سني حياته متعة وحيوية، برغم ان قصته آنذاك بدأت تمثل دليلا واضحا على مناهضة المسيحية من قبل النازية....وبعد اختتام المناورات الحربية التي ادراها القائد هملر بنفسه، كان كارل قد حصل مع ثلاثة طلبة اكليريكيين آخرين على ارتباط بالرايخ فوهرر، وهنا قال له هملر:"انت حر في خدمة ربك، حتى وانت ترتدي هذه البدلة "...ثم تم تكليفه بنقل المراسلات الى باريس وهناك حظي بفرصة الاستماع الى صوت اديث بياف كما حظي بمقابلة مرشد الالمان الديني، الاب ستوك...

اخيرا، انذر الاخ جيريون بترك الكنيسة الكاثوليكية، فعمل على ارسال رسالة الى هملر وضح فيها الايديويوجية الاشتراكية والوطنية التي يؤمن بها فتم نقله الى ويرماخ ثم ارسل الى روسيا، وعند مروره ببولونيا، ادرك بأن اهداف الحرب التي يسعى اليها الجيش النازي قد بدأت تتحقق فبدأ يعمل ضد تلك الاهداف، وقام بزيارة سرية الى معسكر داشو ليعمل فيه بصفة ممرض وهناك اتهم بمحاولة قتل هتلر وارسل الى جنوب ايطاليا وكان الجيش الالماني هناك يعاني الهزيمة، لذا استفاد من وجوده في روما ليحظى بمقابلة البابا الثاني عشر وينتزع موافقته على ان يصبح كاهنا قبل اتمام دراسته علم اللاهوت..

نجا الاخ جيريون من الموت عدة مرات قبل ان يقع في ايدي الامريكان ويسجن في معسكر يضم الاسرى الفرنسيين..

خلال ارتدائه بدلة الجيش النازي، حاول غولدمان الا يرفع مسدسه بوجوه الابرياء، وكان يساعد الجرحى في معسكر الاسر ماساعده على ان يصبح كاهناً في ٢٤ حزيران ١٩٤٤ برغم وجوده في الاسر، ثم نقل الى معسكر آخر في افريقيا الشمالية ولاحظ سيادة الايديولوجية النازية على المعتقلين فيه فقاوم ذلك بعناد وعمل على تأسيس " كلية " صغيرة لتدريس اللاهوت مع مصلى خاص لإقامة القداس مواجهاً بذلك اكثر السجناء عدائية للكنيسة..

بعد اشهر، ساعدت توصية من مسؤول رفيع المستوى على نقل الاخ جيريون من معسكر الاعتقال الى مدرسة شارتر الاكليريكية المسورة بأسلاك شائكة ليكمل اسره هناك ويكمل بالتالي رسالته في مناهضة النازية وتوطيد ركائز الدين في نفوس المعتقلين، وكان سعيداً جداً بحصوله على بدلة الكهنوت وحمله صفة كاهن لينطلق من خلالها لإنقاذ الشباب من الافكار المدمرة.

الاخ جيريون